الملفوظات الاستفهامية بين القيمة الحجاجية والتوجيه المعنوي
قراءة في نماذج من خطابات مُحَمَّد البشير الإبراهيمي

الدكتور: علي حميداتو

جامعة البليدة2

1- ملخّص المقال بالعربية:

يتناول هذا المقال قراءة في البعد التداولي للاستفهام من خلال دراسة نماذج من خطابات مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، إذ يؤدي إلى أغراض تداولية متعددة، ليخرج بذلك عن الأصل الذي وضع له إلى إثبات قضية أو نقضها، فيخرج بذلك عن طبيعته الإخبارية ليصير فعلا كلاميا غرضه التأثير في المخاطب به بحمله على فعل أو ترك أو دعوته إلى ذلك أو تقدير حكم أو تأكيده ، وهو لأجل ذلك يكتسي هذا الطابع التداولي لما في القيمة التحاورية التي تضيفها أحرف الاستفهام على التبادل الحواري من أهمية، فالقيمة الحجاجية للاستفهام واضحة المعالم في بنية الملفوظ، إضافة إلى كونه موجها معنويا يكتسي أهمية بلاغية رفيعة في تحديد مقصدية المتلفظ.

2- ملخّص المقال بالإنجليزية:

Abstract.

The following article with a reading of the pragmatic dimension of the question by studying examples of Muhamed al-bachir al-brahimi discours.It leads to various pragmatic purposes. Thus it lives the original that has been established to prove the case or revoke it. So it departs from its declarative nature to become a verbal act intended to influence the communicator. This latter is obliged to do, leave or to appreciate or confirm a judgment. For this reason, it has a pragmatic nature for which there is an important interactive value added by the question letters to the dialog exchange. The value of the answer to the question is clearly defined in the structure of the verb. In addition to its moral destination it has a rhetorical importance in determining the aim of the speaker.

3- تمهيد:

يعد استعمال الأسئلة الاستفهامية من الآليات اللغوية التوجيهية، بوصفها توجه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عليها، ومن ثمّ فإن المرسل يستعملها للسيطرة على مجريات الأحداث. كما يستعمل الاستفهام للسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل لا ما يريده الآخرون، وتعد الأسئلة، خصوصا الأسئلة المغلقة من أهم الأدوات اللغوية لاستراتيجية التوجيه[1].

والاستفهام هو طلب المعرفة حول شيء معين، وله دور كبير في العملية الحجاجية " نظرا لما يعمله من جلب القارئ أو المستمع في عملية الاستدلال بحيث أنه يشركه بحكم قوة الاستفهام وخصائصه "[2].

يجسّد الاستفهام في خطابات مُحَمَّد البشير الابراهيمي ويؤدّي إلى أغراض تداولية مختلفة، مما يولّد عديد المعاني التي تتحدد تبعا للسياق الذي يرد فيه الاستفهام، وللغرض الإنجازي الذي يقصده. حيث يحضر السؤال في خطابات الإبراهيمي بشكل مكثف، حتى غدا علامة مائزة، حتى إنه ليتحوّل من طلب معرفة أشياء لم تكن حاضرة وقت الطلب ، إلى وسيلة إثبات لقضايا أو نقض لأخرى، وهكذا تتراوح مهمته بين التعبير عن رأي أو الاستفهام عن ادعاء، أو إنكار، أو تقرير وضع، أو توريط مشكك، أو في جواب عن مسألة.

في تداوليات الخطاب يخرج الاستفهام عن طبيعته الإخبارية، ليصير فعلا كلاميا ذا قوة إنجازية، فتتولد عنه معان تتحدد تبعا للسياق الذي ورد فيه وللغرض الإنجازي المقصود.

ولأجل ذلك لا ينظر في المنظور التداولي إلى حروف المعاني على أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية؛ بل إنها إضافة إلى ذلك " أفعال كلامية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو ذاتية بالكلمات "[3]؛ إذ يرمي المتكلم من توظيفها إلى التأثير في المخاطب بحمله على فعل أو ترك، أو دعوته إلى ذلك أو تقرير حكم من الأحكام أو تأكيده ...

كما تكتسي صيغ السؤال بعدا تداوليا لا يكتسبه غيرها من الصيغ[*]، ويرجع السبب في ذلك إلى القيمة الحوارية التي تضفيها هذه الحروف على المبادلات الكلامية بين المتحاورين، للتداول في القضايا محل النزاع.[4]

إن أي وصف دقيق للملفوظات الاستفهامية ينبغي ألاّ يغفل – من ضمن أمور أخرى – القيمة الحجاجية التي تنطوي عليها[**]؛ أي إمكانات تأليفها داخل ملفوظات حجاجية، وهي قيمة تتجلى في المستوى الداخلي العميق لكثير من البنيات الاستفهامية.[5]

فالملفوظ الاستفهامي يمكنه أن يؤدي في التأليف الحجاجي وظيفة الحجة كما يؤديها أي ملفوظ آخر، وإذا فحصنا هذه الملفوظات الاستفهامية ذات الوظيفة الحجاجية ستنتهي إلى خلاصة أساس، وهي " أن القيمة الحجاجية للملفوظات الاستفهامية الواردة ضمن التأليف الحجاجي في موقع الحجة تتمثل (أي هذه القيمة) في التوجه الحجاجي الذي يختص به المحتوى القضوي لهذه الجمل بعد تحويلها من صيغة الاستفهام إلى صيغة النفي "[6]. هذه الأطروحة العامة التي انتهى إليها أقطاب الحجاجيات اللسانية في وصفهم ومقاربتهم لصيغ الاستفهام ذات المحتوى الحجاجي.

4- الاستفهام بين القيمة الحجاجية والتوجيه المعنوي:

لننظر في النماذج الآتية من خطابات الإبراهيمي:

قوله:" **ثم نقول لهم ما هو أبعد عن أفهامهم وأشدّ منافرة لتصوراتهم وأوهامهم وهو أن هذه الجمعية التي تحاربونها في أشخاصهم ومبادئها قد كوّنتها الأمة وأنتم منها، فهل تكذبون النفس أو تعاندون الحسّ؟** "[7].

إن الناظر في هذا القول يدرك أن الاستفهام الوارد في هذا الملفوظ (م ؟) يمكن أن يعوض بنفي (م) أي (~ م)، فالملفوظ يمكن تحويله إلى:

(... **فلن تكذبون النفس أو تعاندون الحسّ**)، بحيث يلعب الملفوظ الاستفهامي " **فهل تكذبون النفس أو تعاندون الحسّ؟** " دور الحجة التي تساند النتيجة وهو " أن هذه الجمعية التي تحاربونها في أشخاصهم ومبادئها قد كوّنتها الأمة وأنتم منها ".

إن الوظيفة الحجاجية المتميزة للاستفهام تتأكد إذا نظرنا في حالة أخرى لا يكون فيها بين الحجة والنتيجة علاقة إسناد وتسويغ كما في المثال السابق، " ويتعلق الأمر بالحالة التي يساق فيها الاستفهام مسبوقا بالرابط (لكن) حيث تنشأ بين الملفوظين علاقة تعارض وتعاند حجاجي "[8].

وبالنظر في النموذج الآتي من خطاب الإبراهيمي: " **تعاونت العوامل في آخرها على القائد عبد القادر فاستسلم مكرها وتحطمت المقاومة الجماعية المنظمة بتسليم الأمير. ولكن هل تحطمت المقاومة بتسليم الأمير؟**"[9].

فالملفوظ الوارد بعد الرابط " لكن " رغم أن صورته الظاهرية عبارة عن فعل للاستفهام إلا أن قيمته الإنجازية الحجاجية في هذا السياق ترتد إلى فعل النفي وتأخذ وجهته الحجاجية، فكأنما قول الإبراهيمي، هو (**تعاونت العوامل في آخرها على القائد عبد القادر فاستسلم مكرها، ولكن لن تتحطم المقاومة بتسليم الأمير**). فالنتيجة التي يساندها هذا الملفوظ هي (قوة المقاومة، أو عدم تحطم المقاومة)، لأن الرابط لكن يمنح الملفوظ ككل التوجه الحجاجي للملفوظ الوارد بعده.

ولنتابع بيان هذه الخاصية الحجاجية لبعض صور الاستفهام انطلاقا من النموذج الآتي من قول الإبراهيمي:" **في معرض حديثه عن جريدة (البصائر) التي جاءت على حدّ تعبيره " لتقتحم العقبات وتصارع الأزمات وحدها، فتسن للمسترشدين بها والسارين على نورها سنن الصبر والمجاهدة والتضحية، لأنها جريدة الجهاد، وهل يقوم الجهاد إلا على هذه الصورة؟** "[10].

قد يظهر من هذا المثال أن الملفوظ الاستفهامي الوارد فيه يندرج ضمن الأسئلة المغلقة التي يكون الغرض منها الاستفسار من قبل المتكلم، والجواب عنها لا يخرج عن النفي أو الإثبات (نعم أو لا)، غير أنه بالإمكان أن نتصور سياقات يتخلص فيها هذا الملفوظ من غرضه الاستفهامي أعلاه وإرجاعه إلى الصورة النافية (ليس هناك ما يقوم عليه الجهاد إلا هذه الصورة)، لأن سياق السؤال بعد هذا الشكل تقتضي الربط بين النتيجة بالرابط (بل) القاضي بأن يكون الملفوظ الذي يليه مشتركا ومساندا في توجيهه الحجاجي من الحجة السابقة، لذلك تؤول الصورة الاستفهامية إلى صورة نافية متوافقة مع الحجة، (لتقتحم العقبات وتصارع الأزمات وحدها، فتسن للمسترشدين بها والسارين على نورها سنن الصبر والمجاهدة والتضحية)، والدليل على ذلك أننا نحصل على تأليف غير مقبول إذا قلنا:(...، **لأنها ليست جريدة الجهاد، ثم هل يقوم الجهاد إلا على هذه الصورة؟**).

بينما يص ذلك إذا قمنا بتعديل في محتوى الاستفهام بالصورة الآتية: (**لأنها ليست جريدة الجهاد، ثم هل هذه صورة يقوم عليها الجهاد أصلا ؟**). حيث عاد التوافق بين التوجيهين الحجاجين للملفوظين اللذين يتعين أن يربط بينهما الرابط " ثم " وبفضل ذلك يتم للملفوظ استرجاع مقبوليته.

فالاستفهام في سائر هذه النماذج يتصرف داخل الملفوظ حجة وليس ملفوظا استفهاميا خالصا، " ومن ثم نحتاج وحتى نحن أمام هذه الاستفهامية الظاهرية إلى استحضار قيمته الحجاجية الإنجازية الفعلية، وهذا ما يؤكد ... أن العلاقات الحجاجية تتدخل في مستويات حجاجية عميقة (البنيات التركيبية) وتشكل بذلك معطى تأويليا قاعديا وليس هامشيا "[11].

وقد تميز طرح السؤال أو الاستفهام في كتابات الإبراهيمي عن بعض الأشكال الخطابية الأخرى التي تتخذ من الحجاج وسيلة لبلوغ الهدف، فالغاية من طرح الأسئلة هي الإثارة ودفع الغير إلى إعلان موقفه إزاء مشكل مطروح .

وللاستفهام كلمات يستفهم بها، ومنها: الهمزة، وأم، وهل، وما، ومن، وكم، وكيف، وأين، وأنى، ومتى، وأيان، وهذه الكلمات ثلاثة أنواع:" أحدهما يختص طلب التصور، وثانيهما طلب حصول التصديق، وثالثهما لا يختص "[12].

وتعتبر الهمزة من أحرف الاستفهام التي تختص بطلب حصول التصور كما تختص بطلب حصول التصديق، وفي كتابات الإبراهيمي عدد كبير جدا من الأسئلة التي استفهمت بالهمزة.

ولو حاولنا فحص تلك الاستفهامات فإنها أتت جميعها طلبا لحصول التصديق في ظاهرها، مع ما تستنبطه من استلزامات خطابية لخدمة وظائف العملية التواصلية في بعدها التداولي؛ إذ يتوقف تمام الفائدة في انتظار السائل من جواب المجيب. كما في قول الإبراهيمي مستفهما:" **أتدرون لماذا ملكنا الغربيون؟ لقد ملكونا لأننا انغمسنا في الكماليات السخيفة التي غمرونا بها** ... "[13][أي أنهم يجيبون بـ: نعم نعلم].

وقوله كذلك :" ... **وسلوا رجال الدين: لو أن واحدا منهم لحقته مظلمة أو إهانة، أكانوا ينتصرون له ويحتجون، ولو ... بالاستعفاء الاجتماعي؟ ... إنهم لا يفعلون ذلك ولو سقطت السماء على الأرض** "[14].[أي أنهم يجيبون بـ: لا].

ومن أمثلته أيضا قوله:" **أليس معنى مقاومة التعليم نشر الأمية وتكاثر الأميين؟ لا يقتضي المنطق إلا هذا** ".[15][أي: بلى]. ففي النماذج السابقة وما ماثلها لا يلتفت في المنظور التداولي إلى السؤال في ذاته، وإنما إلى علاقته بمقام التواصل الذي تم فيه.

وتكمن القوة الإنجازية لهذا النوع من الأسئلة في قدرته على توريط المخاطب ببيان فساد رأيه، وهو ما يدل عليه مثلا استفهام الإبراهيمي حول محاكمة الاستعمار لمعلمي العربية والإسلام مدعين الديمقراطية في أحكامهم، قوله:" ... **وحسب الاستعمار (ديمقراطية) أن يحاكم معلمي العربية والإسلام، ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام، في محكمة واحدة، وسجن واحد، وظرف واحد، وقد**

يكون يوم جمعة في الغالب، أليس هذا احتراما للإسلام، ومن مصلحته كما يقول العاصمي؟ أليس هذه هي الديمقراطية؟ فما لكم تكذبون؟ "[16]. ففي هذا الاستفهام تبكيت وتقريع وإقامة الحجة التي لا يملك معها إدارة المستعمر أو من يمثلهم من أمثال العاصمي أي جواب أو ردّ منطقي مقبول.

والاستفهام بالأداة " هل " والتي تقرن " أبدا في المشهور وبادئ الرأي بقضيتين متقابلتين "[17]، ولا يُطلب به إلا التصديق[18]، وفي طلب التصديق تكمن قوته الإنجازية، وقد استعمله الإبراهيمي في معرض تذكيره وتحفيزه على الإنفاق في ضوء العمل على إصلاح جامع الزيتونة ومنظومته التدريسية، قوله:" **وأما المال فإن الإصلاحات تتطلب أموالا طائلة، ونفقات سخية، ... إن الكليات حتى في أغنى أمم العالم لا تقوم على مال الحكومة المحدود وحده، وإنما تقوم على عطاء الكرماء وبذل المحسنين، فهل آن لأمتنا أن تعلم هذا فتعمل به؟** "[19].

فالمقام مقام بحث عن حصول التصديق، والذي يهمه أن يكون مصدقا في رأيه هو الإبراهيمي، فقد كان حرصه كبيرا على بيان الحقيقة لمعارضيه رغبة في دفعه لهم إلى إنفاق المال في صالح إصلاح الأوقاف الإسلامية ومنها جامع الزيتونة.

وقد أتت أداة الاستفهام " هل " مقترنة بالزمن الماضي، ومرد هذا التخصيص يكمن في أن الأغراض البلاغية لهل؛ الإثبات أو النفي، فكان المطلب التداولي للإبراهيمي إثبات الحقيقة الواقعة – أي الإنفاق المالي بغية الإصلاح – التي استفهم مخاطبيه حولها، فكان السكوت بمثابة الإقرار؛ أي: نعم. وفي هذا الاستفهام إنكار من الإبراهيمي على تقاعس المنفقين والتعويل على الحكومة في أداء هذا الدور.

ثم هناك الاستفهام بالأداة " ما " والتي تأتي للسؤال " عن الجنس وللسؤال عن الوصف "[20]، كما تأتي " لمجرد الاستخفاف والتحقير ... وللتعجب "[21]، وفي كتابات الإبراهيمي من أمثلة هذه الاستفهامات، قوله:" **كنت وصفتكم ببعض هذه الصفات تفاريق، وقد جمعها الشيخ (بيرك) ووصفكم بها جملة، وإن التفاريق لأخف وقعا من الجملة، وأنا اليوم حي وهو ميت لا ترجون رحمته ولا تخافون بطشه، فما لكم لا تثورون عليه بعضَ ثورتكم علي؟ وما لكم لا تحشدون الأنصار للرد عليه ونقض كلامه؟**"[22]. بمعنى أي ثورة ثرتموها ضدي ، فصارت بذلك ثورتهم ضده مظنة التعجب والاستخفاف، فكيف تثورون عليه لسبب قد حصل لكم مع غيره ولم تثوروا. ولأن من معاني " ما ": أيّ شيء؛ إذ " الشيء هو أعلم ما يمكن أن نعلمه "[23] فإن الذي ثاروا من أجله، دفع الإبراهيمي إلى السؤال عن سببه إذ لم يثوروا منه من قبلُ، فكان في دلالات التعجب والاستخفاف من أمر ثورتهم القوة الإنجازية للسؤال بـ " ما "، فإذا علم أن الذي ثاروا من أجله مرفوض لما فيه من خداع ومكر " جُهل الشيء الذي جعل ندا له "[24] وهو مقارنة قبولهم لمثل هذا الذي قيل فيهم دون ثورتهم بما أحدثوه مع الإبراهيمي، ولا يأتي ذلك إلا بالاستفهام بـ " ما " لتكون قضيتهم أعم وأدعى لأن تعلم.

تعتبر صيغ التوجه الحجاجي الاستفهامية ذات مفعول حجاجي مهم، يقول بيرلمان وتيتيكا:" صيغة التوجيه الاستفهامي نمط ذو أهمية بلاغية رفيعة. إن السؤال يفترض وجود أمر يستند إليه، ويوحي بأن هناك اتفاقا على وجود هذا الأمر "[25].

إن المتكلم في الأمثلة السابقة – الإبراهيمي – إذ يصرح بالاستفهام المباشر منطوقا به ، فإنه يفتح باب الضمني مفهوما (الإنكار) موجها الكلام الوجهة التي تخدم أغراضه ومقاصده الحجاجية؛ أي الاستدلال على المعنى المقصود للجملة انطلاقا من معناها الحرفي على اعتبار أن المعنى الحرفي هو كما يقول ديكرو " الشاهد على المعنى الخفي بحيث يكون الدال هو فعل التلفظ المسجل في المعنى الحرفي، ويكون المدلول هو السبب المبرر لإنجاز هذا الفعل وذلك المعنى "[26].

5- الخلاصة:

يُعدّ الاستفهام من أهم الأساليب الحجاجية في كتابات الإبراهيمي فقد أتاح له الاستفهام فرصا بلاغية وحجاجية دعمت المقصد التبليغي، وانتقلت بالمعنى من مجرد طلب الجواب عن أمر أو الاستخبار عنه إلى معاني سياقية أخرى مدعمة، وذلك لما للاستفهام من وظائف ومعان بلاغية أخرى من تعجب وإنكار وتقرير وغير ذلك، فهي تتضمن لأجل ذلك القيمة الحجاجية فضلا عن كونها توجّه ملتقي الخطاب إلى القصدية وإلى المراد إنجازه او التفاعل معه.

وفي الأمثلة السابقة ألفينا مُحَمَّد البشير الإبراهيمي متمثلا للدور الحجاجي الذي يحققه الاستفهام، خاصة ما يتعلق بالاستفهام الإنكاري، ذلك أن توظيف المعنى الضمني أعلى مقصدية من توظيف اللفظ الحقيقي، وذلك لأن المخاطب مدرك وواثق من أن المعاني الضمنية أبلغ حجاجيا، وتفيد في التبليغ والإقناع ما لا تمنحه الحقيقة، وذلك للقوة التي تمنحها إيّاه اللغة.

المراجع والمصادر

[1]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية –، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2004، ص 352.

[2] – عبد الحكيم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم – سورة الأنبياء نموذجا –، مجلة التراث العربي، ع 102، نيسان 2006، ص 192.

[3] – مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي – ، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص 217.

[*] – لم يضع العلماء العرب للاستفهام تعريفا واحدا، كما لم ينسبوه لجهة واحدة من ضربي الإنشاء (الطلبي / غير الطلب)، وإن عده أغلبهم من الإنشاء الطلب، فكل " مخاطبة وكل قول يخاطب به الإنسان غيره فهو إما يُقتضي به شيئا ما وإما يعطيه به شيئا ما (...) والقول الذي يُقتضى به شيء ما فهو يُقتضى به إما قول ما وإما فعل شيء ما. والذي يُقتضى به فعل شيء ما فمنه نداء، ومنه تضرع، وطلبه، وإذن، ومنع، ومنه حثّ، وكفّ، وأمر، ونهي ." [كتاب الحروف، ص 162.] والذي يُقتضى به قول شيء ما هو الذي سماه الاستفهام؛ إذ " اقتضاء القول هو السؤال "[كتاب الحروف، ص 163.].

[4] – ينظر: نور الدين اجعيط، مناظرة على للخوارج مقاربة تداولية، ضمن مصنف التحليل الخطابي للحجاج، إشراف وتقديم: أحمد قادم، وسعيد العوادي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2016، ص 400.

[**] – يتحدث ديكرو في السياق عن الجمل الحجاجية ذاتها وليس ملفوظاتها فقط.

[5] – Anscombre, J.C. et Ducrot. O, " L'argumentation dans la langue " in Langages, Volume 10, Numéro 42, 1976, p 115. نقلا عن: رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج – مدخل إلى الحجاجيات اللسانية –، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2014، ص 95. نقلا عن:

[6] – رشيد الرضي، المظاهر اللغوية للحجاج...، ص 96.

[7] – آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ج 1، ص 128.

[8] – رشيد الرضي، المظاهر اللغوية للحجاج...، ص 96.

[9] – آثار البشير الإبراهيمي، ج 5، ص 78.

[10] – آثار البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 461.

[11] – رشيد الرضي، المظاهر اللغوية للحجاج...، ص 98.

[12] – أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ص 418.

[13] – آثار البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 211.

[14] – المصدر نفسه، ج 3، ص 157.

[15] – المصدر نفسه، ج3، ص 345.

[16] – المصدر نفسه، ج3، ص 345.

[17] – مفتاح العلوم، ص 200.

[18] – المصدر نفسه، ص 419.

[19] – آثار البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 551.

[20] – مفتاح العلوم، ص 421.

[21] – المصدر نفسه، ص 424.

[22] – آثار البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 198.

[23] – كتاب الحروف، ص 166.

[24] – المصدر نفسه، ص 166.

[25] – Ch.Perelman et O.Titika, Traité de l'argumentation: la nouvelle réthorique. Edition de l'université de Bruxelle, 5éme édition 2000, p214. نقلا عن: عزيز لديه، نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2015، ص 107.

[26] – Le dire et le dit: Oswald Ducrot, éditions: Les éditions de minuit, Paris, 1984, p101,102. نقلا عن: الزمالي كمال، الحجاج في المناظرات الموجهة إلى أهل الكتاب – مناظرة الباقلاني لملك الروم أنموذجا – ، ضمن مصنف: التحليل الحجاجي للخطاب، ص 377، 378.